غسان الخنيزي

إختبار الحاسـة
أو
مجمل الســـرد

مؤسسة دار الجديد

غسان الخنيزي

إختبار الحاسـة
أو
مجمل الســـرد

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

جميع الحقوق محفوظة للكاتب والدار
الطبعة الأولى، ٢٠١٤، دار مسعى للنشر والتوزيع
الطبعة الثانية، ٢٠٢١، مؤسسة دار الجديد

دارة محسن سليم ـ حارة حريك
بيروت ـ لبنـــان
صندوق بريد: ٥-٢٥ الغبيري
هاتف: ٥٥٣٦٠٥-١-٩٦١
www.dar-al-jadeed.com

ترقيم دولي: 978-9953-11-198-8

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

إلى شادية،
روحي تبعثُ النورَ حيث لامَسَتْكِ، وحيث أضاءت.
متنعّمًا بالحضرةِ،
مأخوذًا بها.

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

إختبار الحاسَّـــــة

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

إختبار الحاسة

الجمالُ
يُودَعُ في القصيِّ من الأماكنِ التي
زارتْنا، ورفقتْ بنا
في النشوةِ، وفي الترنيمةِ
وفي الخَدَرِ المُبْرِحِ على الجسد:
اليدُ التي أعرفُ
الخاصرةُ التي أكونُها
والنشيجُ، حينَ تترنحُ المصائِرُ
بينَ النومِ الخفيفِ - الحرمانِ منَ اليقظةِ
وبينَ الشُّرودِ، في اليقظة.

مؤسسة دار الجديد

الجوارُ غريبٌ
كما لو أنّ الجسدَ يطيرُ قليلًا
كأنَّ حيرتَهُ، تُلِمُّ بالجوارِ كلِّه
والعلوُّ القليلُ عن الأرضِ كثيرٌ عليه
والصوتُ، أكبرُ من الغفلةِ، التي كان فيها يومُهُ طويلًا
طويلا.

الأوصاف، لم يُهمَسْ بها
ولا كان النُّواحُ بديلًا عن التغزُّلِ في الجسد
يومَ كان الوجعُ طريًّا وصادمًا: الوقت واقفٌ،
والحاسّةُ تُختبَر...
والأبدان، ماءٌ عطوفٌ يسري بينها، لحظةَ كانت
اللذّةُ بلسمًا ضدَّ الألم.

الجسدُ، عندما يحزنُ
ويشيخُ من فَرْطِ ما حَزِن
والحنايا تزرقُّ، يتعالى أنينُها
وفي العالي من التَّأَوُّهِ
تتذكّرُ صِبَاها، ومرحَهَا.

اليدُ، التي بحثت عمّا تُقَلِّبُهُ
حينَ تداخلت الحَنَايا في بعضها
أو، حينَ امتدَّت اليدُ إلى كتاب.

اليدُ التي تحزنُ
تراهُ يمشي على الأنامل:
موتٌ، حيث الجسدُ لا يُحِبُّ ولا يُحَبّ.

مؤسسة دار الجديد

شادية

وأنتِ نائمةٌ في سريري
تذكّرتُ أن أباكِ وأمكِ تزوّجا في لبنان
كذلك أمي وأبي، اللذان في هناءِ حياةٍ قديمة
لم أَرَهُما سويّةً
ولم أعرف إذا ما جمعتْهما صورةُ عُرسٍ
ولم أسمع عن المغنّي الكفيفِ الذي غنَّى لأمّي
لحظةَ زفافِها.
تذكّرتُ، ثم أدركتُ أنّ قلبَ أمي صندوقٌ عميقُ
الغور.

مؤسسة دار الجديد

وأنتِ نائمةٌ في سريري
هَجَسَتْ عصافيرُ كثيرةٌ في الخارج
ووجهُكِ، أضاءَ الصباح
وتذكّرتُ أنّنا نادَمْنا ما خطّته أيدينا
وأننا تذكّرْنا حياتَنا بحنانٍ هادئٍ وكبير
وكان تأمُّلُنا صبيّةً لها ضياءُ وجهِكِ
وكنَّا نرعرعُ الصبيَّة... ندلِّلُها
نحبُّ لها أن تلثغَ، لأننا كنّا كذلك، وسنكونُ،
أيضًا.

وأنتِ نائمةٌ
مسحتُ على جبينِكِ مسحتين، ورحتُ أُضيءُ بهما
المكان
ونورٌ شفيفٌ تغلغلَ حيثُ ذهبتُ، من غرفةٍ
لأخرى
وانتبهتُ إلى روحي تبعثُ النورَ حيث لامسَتْكِ،
وحيثُ أضاءت.

وأنتِ نائمةٌ
حيث جاءتِ الكفُّ على الكتفِ
عرفتُ أنّي أحِنُّ إليكِ... وإليَّ
فتركتُكِ، أتفحّصُني حيث استجدّتِ التضاريس
وحيثُ أحببتُ نفسي
وحيثُ أخذتُ أعدّدُ أشواقي، أرتّبُها
أتذكّرُ كيف جمعتُ كلَّ واحدٍ منها
وفي أيِّ مطرحٍ من جسدي قد استقر.

وأنتِ نائمةٌ
تذكّرتُ أنّي خفيفٌ، كطيفٍ أو خيالٍ
وأنّي أكادُ أذوبُ... في حياتي.

أيُّ رمية حجر

أيُّ نهارٍ استدرجنا من المخابئِ حيثُ سادَ
اللَّهْوُ أحادًا ومَثنَى وثُلاث؛
وأيُّ رميةِ حجرٍ أخذتْنا
أو أخذتِ الصبيَّ فينا، وراءَها، عبرَ الوادي حين
كانتِ الصيحةُ تطولُ كالنهار.

أيُّ أشباحٍ كنا في المخابئ
فأحببنا الجسدَ وقلّبناهُ في الظلِّ حيثُ تخْفُتُ
الألوانُ ويستفحلُ الصوت؛
وأيُّ شاهدٍ أصاخَ السَّمْعَ إلى دويِّ النحلِ حينَ
استسلمتِ الملكاتُ وانقطرَ العسلُ قَطْرًا.

أيَّ مائدةٍ للعسلِ مددنا نزولًا من قِمّةِ جبلٍ حيثُ
أقمنا الحبَّ، حتى صفحةِ الماءِ حيثُ لامست
الشراشفُ طيورَ الماءِ في غفلةٍ منا؛
وأيُّ طيورٍ للماءِ كنَّا، وصفحةُ الماءِ تستضيفُ عُرينا
وجوعَنا.

أيُّ إفطارٍ كان والعسلُ ينهرقُ بينَ الأصابعِ
والشمسُ تطلعُ على الوادي كسمكةٍ برتقاليّة؛
وأيُّ سنواتٍ مرّتْ وتصرّمتْ
ونحنُ في الغفوةِ التي نمناها في ظلِّ نخلةٍ
تخفقُ في الريحِ، كعَلَم.

أيُّ حبيباتٍ أتين إلى المأدبةِ يصحبُهُنَّ الصوتُ الذي
هو وَهْمُنا
بل قل: غوايتُنا التي أحببنا لأنَّ الروحَ عطشى؛
وأيُّ غيماتٍ ماشيْنَهُنَّ وتوقفنَ حينَ استرحنَ
ضيافةَ السيل؛
وأيُّ ريحٍ أتتْ في الصُّحبةِ وراوَغَتْ قليلًا،
لتنفذَ كالإبرةِ في الجسدِ، كي تتردّدَ الصيحةُ
في الوادي
ويطولَ الصوتُ... بطولِ النهار.

مؤسسة دار الجديد

طيران

في الصُّبحِ بيني وبينكِ نَوْمَةٌ، أو محيطٌ أطلسيّ،
فيه مدنٌ وأفعالٌ ومراكبُ وسهوبٌ وغدرانٌ وأناسٌ
صغار.

كنّا نورسين أو غيمتين، حين سقطتْ مياهٌ من سماءِ غرفتكِ
ومن وجهِكِ، وصارت تنسابُ في الزوايا
والمخلوقاتُ الصغيرةُ احتمتْ بالتضاريسِ
وبالشراشف
من سيولٍ وزوابعَ، لا تُرَى بالعينِ، عصفتْ
بالميكروبات، وبالعُثّةِ التي في الأثاث.

كان لا بُدَّ من روحِكِ الشفوقةِ عليهم، كان لا بُدَّ
من مَسربٍ لكلِّ ذلك، كجارورٍ أو إناءٍ معدنيّ
كان حريًّا أن تستحمّي بتلك المياه
أرفعُ جسدَكِ قليلًا لينفردَ شعرُكِ على البلاط
كان حريًّا أن أكونَ نورسًا ويكونَ ظهرُكِ غيمةً بيضاء.

النومُ حياةٌ أخرى
أنتِ شخصٌ آخرُ في كُمونِكِ، في تقلّبِ الجسدِ،
في طيرانِ الليل ونزيزِ المياه
وفي الغَوْصِ، في التمدّدِ، وفي النشوة.

تسمعينَ أطيارَ بابلو نيرودا تنادي في القصيِّ من
الأماكن، وبيني وبينَكِ صوتُ قُبّرةٍ أو حسّون أو
يمامة.
يدي تمتدُّ عَبْرَ الأطلسيّ تهدهدُ تضاريسَكِ
ونومَكِ
حلمُكِ ليس حلمي، وأنتِ لستِ أنا.

مانشستر ـ المملكة المتحدة، ربيع ٢٠٠٩

مؤسسة دار الجديد

فيزيـــــاء

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

عزف منفرد

الموسيقى التي تتبعُ الصوتَ
موسيقى الغرفةِ الأخرى
التي تملأ الممرّاتِ براقصينَ جَذِلين، وبالنشوةِ
قبل أن تصِلَكِ.

المستمعُ، ليس أنا
بل: الصالةُ، والأثاثُ، واللوحاتُ، والتماثيلُ،
والمنفضة.

الموسيقى التي تتبعُ صوتَكِ
هذا العزفُ المنفرد
والضجيجُ والجَلَبَةُ التي يأتي بها
وأولئكَ العازفونَ الذين ينتظرونَ أدوارَهم.

مؤسسة دار الجديد

طقس

رائحةُ جذوع النخل المحترقة في هواءٍ ساكنٍ
ورطب
في اللاحضورِ المُبهِت للشمس
والغبار، الناعم كالذرورِ، في المقابرِ
الذي من أجله نزمُّ الشفتين تحسُّبًا
ونقطّبُ الجبينَ دفاعًا عن الأعين.
هي رائحةٌ عتيقةٌ تلائِمُ أكثرَ أولئكَ القدماء
الذين كانت ملابسُهم تاريخًا أبيضَ من الدموع
الذين يجلسونَ يهندسونَ المجرّةَ كما لو كانت بيتَ
راحتِهم
ويلثغونَ الفيضَ الأوّلَ للمعرفة، مرّةً بعدَ مرّة.

كيف سأجلسُ إلى أولئك المشّائين
الذين يهجسونَ بالأصفارِ وحسابِ المثلّثات
ويتسارَرُون بالحكمة؟
كيف سأعيشُ في بيتِهم ولا بيتَ راحة
أو مناديلَ معطّرة
أطردُ بها رائحةَ الجذورِ التي في هواءٍ قديمٍ ساكنٍ
ورطْب؟

كيف سأغتسلُ مع أولئك العرفانيين
في نهرٍ بلا بُقَعَ بترولٍ أو أكسيد الزئبق أو
الرصاص؟

كيف سأبدّلُ دروعي المخمليّة ــ وذخيرتها: ذاكرةُ
الفولاذ، والطرائدُ، والحيواناتِ المهجّنة، وغاباتُ
الأمازون، والبروليتاريا...
أبدّلها بلفافةٍ بيضاءَ ذاكرتها توابلُ عتيقةٌ لا تنتهي
اسمُها: اللاعنف؟

مؤسسة دار الجديد

صورة

كم ستكتظُّ السماء
لو انتقلنا بهذي المعمورةِ أقربَ إلى المشتري
ذلك الكوكب المتبختر بأقمارِه الستين
وجرمِهِ الذي لا يُبارى.

عندها ستكونُ وطأتُهُ على البصرِ، باهظةً
نراهُ كيفما تلفّتْنا، كشاشةٍ هائلةٍ تعرضُ فيلمًا عن
المشتري.

سندبُّ كالنملِ تحتَ جَفْنة بلّورٍ هائلةٍ من صُنْعِ
KostaBoda
تتدلّى من قُبّةِ الليلِ تنبضُ بالأحمرِ، وبالبرتقاليّ،
وبالهسهسة.

قد نجلسُ نُحصي أقمارَهُ القُزحيّة
حتّى يقرصَنا حسدٌ يسودُّ له القلبُ
وقمرُنا بقعةٌ باهتةٌ تتحرّكُ في فيلمِها الأبيضِ
والأسود
بكسلٍ يقطعُ قُدرتَنا على أَخْذِ نفس.
سنجلِسُ مخبِّئينَ الانزعاجَ من جيرةٍ كتلك.

جاذبية

الجُرْفُ، حيث رمينا المناديلَ
وَقفْنا عليهِ نشهدُ فعلَ الجاذبيةِ
ثم إنّنا أحببنا - بل عشقنا ما رأينا
رأينا الروحَ الخفيفةَ تسابِقُ المناديل.

رحلةٌ استعذبنا لطْفَ هوائها
ما غمضَ لنا فيها جَفْنٌ
ولا سكتَتِ النجوى
استمرأنا تَطايُرَ الثياب
وتناثرَ ما اصطنعنا من الأحبّةِ لحاجةٍ
ومن المريدين لحظةَ ملَل.
السقطةُ التي فاضتْ، وأوصلت.

مؤسسة دار الجديد

أرق

الغرفةُ عندما تَضُمُّني
وتحنو على أرقٍ خفيفٍ، يجاوِرُ النافذة
الستارةُ التي غابت أو تأخّرت
لكي أرى بينَ كلِّ خطفةِ نظر
وبين تقليبةٍ وأخرى
صُوَرَ الأشجارِ بالأبيضِ والأسودِ حينًا
وباللونِ حينًا.
لكنَّ الأصفرَ، ضوء الأشجار
وظلّها في السقفِ وفي قاعِ العين
يصحبُ حُلْمي.

الحلْمُ الخفيفُ الذي لا يأتي
إلا حين تبهتُ الأضواءُ، وتذوبُ
في أزرقِ النهار.

Entropy

هي طاقةُ الخلاء
التي إليها مددْنا الأيدي من النوافذ
فجاءت: ليست نسائمَ زرقاءَ، أو هبّاتٍ ترابيّةَ
النكهة
بل هي دوّاماتٌ من الأخيلة
تخترقُ الطفلَ والصبيَّ والكهلَ فينا
على إيقاعٍ من طبلٍ ودفوف.

ما إن مددْنا الأيدي حتّى انحسرتْ أحجبةٌ عن
كلِّ يد
وجَلَبَةٌ عظيمةٌ لهواءٍ عبرتْ بين الأصابع
كما لو هوجاءُ الريحِ بينَ الأشرعة.

أيادٍ قد أبحرتْ في الجوار
تتحسّسُ الأثرَ الضئيلَ الذي تتركُهُ المخلوقاتُ في
الهيولى
تلك هي رياضيّاتُ الحياةِ وفيزيائيّاتُها: طاقةُ
الخلاء.

إنتروبيا! أناديكِ يا طاقةَ الفوضى،
وطاقةَ التشتّت!

الأيادي، حينَ تمتدُّ إلى الشرفاتِ والدهاليز
وارتداداتِ المباني،
والطاقةُ التي تأتي كالطائرِ ــ الصقر ــ
الذي، بعدَ ملاحقةِ الطرائد، يحطُّ على اليد.

مُنْتَهى القول

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

في المعنى

الشِّعرُ كلامٌ قليل
يكونُ لكَ متى ما استيقظتَ من غفوتِك
أيُّها الشَّفّافُ في المنامِ - المُعْتِمُ في اليقظة.

كلامٌ يكونُ لكَ متى ما استويتَ وأخذتَ مكانَك
ليس كما اتّفق
بل برحابةِ صدرٍ واجتهاد.

هو كلامٌ قليلٌ يُقال في التِّرْحابِ
الذي تقولُهُ أيُّها الناطقُ
للجموعِ الآتيةِ من تاريخِ مخيّلتِك
للجماهير التي تحيا في الكذبِ الأبيضِ الذي
توارثْتَهُ من سُلالتِك
للأفواجِ التي تنتظرُ موتَكَ أو حياتَكَ أو قيامتَكَ
أيُّها المولودُ كلَّ يوم
لكي تنفكّ من إسار حِكمتِك وحَيْرَتِك
إلى فضاءٍ من الصراخِ والهرجِ والفوضى.

الحكمةُ رملٌ أصفر.

فقه المكان

بمِنْجَلٍ، أو هلالٍ، أو بالهُدْبِ لدَى النظر
نَحْصُدُ حِزَمَ الضوءِ
نخبِّؤُها جيّدًا في الكيسِ، أو في تلافيفِ المنام
ونحن ننظرُ بِكلِّ الرضا إلى السماءِ، إلى الثُّقبِ
الأسود.

النهاية! النهاية! واللاشيء هو المُبْتغى.

وإلّا، لِـمَ كلُّ هذه الحركةِ، وكلُّ الضجيج
وتلك الحشراتِ التي تَكِدُّ
والقُطْعانُ التي تَحْرُثُ المراعي في الجوار
والأسرابُ التي تهتاجُ بالنشوةِ
كلّما لامَسَ مِجَسّاتها ذلك الهواء
هواءُ المتوسط، هواءُ الفينيقيّين.

الأقوامُ التي فارقَتْها جبالُ القوقاز
قطعتِ البراري والوِديانَ، وأهوارَ الجنوب
كلّ هذا من أجلِ النهاية!
الأقوام التي استهوتها مستنقعاتُ الملاريا
والأنيميا المنجليّة والتراخوما.

أيُّ مَكَدَّةٍ كانت، وأيَّ وَهْمٍ خبَّؤوه في مصابيحِهم
التي حَمَلوها عَبْرَ الصحارى والأهوار
التي طافوا بها خارجَ المدنِ المسوّرة
دونَ أن يَرَوا عرباتِ الآشوريين
أو الألواحَ التي كُتبت بالمسامير
أو بابلَ التي تتألّقُ كشمسٍ مُذكّرة.

أيُّها الأسلاف!
كيف لكُم أن تنتهوا بنا ههنا
تمرٌ حامضٌ، ورطوبةٌ وعماء
لستم سومرَ ولا بابل.
أيُّ أسطورةٍ بيضاءَ، إذًا، أنتم؟
الحكمةُ صمتٌ أصفر.

سِدْرَة المنتهى

النخلةُ التي تقفُ في الخفقةِ واللونِ والصورة
تنتهي إليها الوراثةُ الأولى، ومماليكُ أخذوا بأيدينا
إلى النعيم.

منتهى الكلام شجرةٌ تظلِّلُنا
منتهى القول شجرةٌ في خريفٍ مائلٍ على العَتَبة
النومُ لا يستقيمُ تحتَها، ولا الكلام.

هكذا هي خَفْقةُ القلبِ، ورَمشةُ الجَفْنِ والعين
تنظرُ خلفَهُ
إذْ هو صمتُ الكلامِ وعَتَمةُ النور
لا صوتَ يُستزاد به، ولا نور به يُهتدى.

السِّدْرَةُ التي تورِقُ في الصمت
سقياها ماءٌ سالكٌ
قولٌ على القولِ، نشيدٌ عن جنّةٍ أخرى هي التي
ننشد.

مُنْتهى القول شجرةٌ صفصافةٌ، تهفهفُ ولا هواء
قطافُها يأخذُنا إلى الزجاجِ والمرايا والعدساتِ
المقرّبة وأسطحِ المياه
والكُثْبانُ إذ تعكِسُ الضوءَ - تُشَكِّلُ السراب.

الحِكْمة صمتٌ، وعَتَمةٌ بيضاء.

لانهايات

واقفًا على شُطآنِ روحِك،
هذه هي الأمورُ التي يجبُ مراعاتُها:

تَفكّرْ في شاطئِ البحر
حيث التأسّفاتُ التافهةُ تنتهكُ اللحظات
وتقدِّم التعطّفَ جنبًا إلى جنبٍ، مع الموجات.

تقولُ: لستُ نادمًا
ولكنّك غيرُ مكترثٍ
للحياةِ العاطفيّة لموجةٍ وأخرى، أو نجمٍ وآخر.

الأصواتُ المملوءةُ بالنجمِ تلتمسُ النسيانَ
الخاصَّ بك
مائلًا على عرشِكَ الرملي
تتأمّلُ فكرةَ الميتافيزيقيا أو مشفًى للجنون.

تقولُ: لستُ سوداويًّا
ولكنّك لستَ خالصًا إزاءَ التوقِ إلى ما يتلاشى
بعيدًا في أحلامِ اليقظة
وتَقْلَقُ من أن تُعْرِضَ عنه، إذا ما تحقّق.

الشُّهُبُ في سماءِ حياتِك هي حرجٌ مراوغ
لأنّ الهذيانَ يُبْرِزُ المخفيَّ واللَّعُوب
في رعود ما نفضَتْهُ لحظة رعشتِك
ونسيمُ البحر هو روحُك القديمة.

تقولُ: لستُ متقلّبًا
ولكنّك تنجذبُ إلى ما يتراقصُ في البعدِ أو في
مشهدِ ليلةِ السماء.

تلك السماءُ هي دُكْنَةُ الفراغِ المقدّسِ للَّغْوِ
الذي تقولُهُ خَشْيَةَ أن يتبعَ النسيانُ خُطواتِ
تنصُّتِكَ على الألواحِ المسماريّةِ للعقل.

تقولُ: لستُ غافلًا
ولكنّك تتحفّظُ في الحبِّ وفي الموت
سابحًا أو غائصًا، أو متقلّبًا على قِمّةِ موجة.

ولكنّك، في ملعبِ كلِّ هذا، تصنعُ بيتًا من الرمال
وطائرُ الخُيَلاء، هو العزاءُ، وهو الرسولُ إليك.

تقولُ: لستُ مستيقظًا
ولكنّك تحافظُ على عيونٍ مفتوحةٍ، مستقرّةٍ،
ويابسةٍ كالملح
مبتلعًا مشهدًا من الغورِ ومشهدًا من السماء
كما لو طائرٌ يتقلّبُ بلا توقّفٍ على وسادةٍ من هواء.

نجمٌ أزرق نجمٌ أبيض نجمٌ أصفر
موجةٌ زرقاء موجةٌ بيضاء موجةٌ صفراء
فراغٌ أزرقُ فراغٌ أبيضُ فراغٌ أصفر

كلامٌ قليل

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

كلامٌ قليل

أن يكونَ بيتُ الغيوم بعلوّ غيمة،
ذلك هو الحظُّ حينَ يعلو كَعْبُهُ،
أو هو حَشْوُ الكلامِ في النشيد.

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

كلامٌ قليل

بين اثنينِ أو ثلاثةٍ
يكونُ الكلامُ القليلُ كثيرًا
الطاولةُ تنوءُ تحتَ ثقلِ الكلام
لولا أنّكِ كلَّ ساعةٍ
بل كلّ وهلةٍ يستغرقُها حُلْمُ يقظة
تمسحينَ الكلامَ أو حُطامَه
تنفضينه عن الجانبين
بمنديلِكِ ذي الأهداب.

مؤسسة دار الجديد

كلامٌ قليل

الثوبُ قد نظلُّ نرتقُهُ
أو أنّ خيوطًا تنسلّ
بين هُدْبِ الثوبِ
وسطحِ البلاط الذي مسحناهُ بالعناقِ
وبالبخارِ الذي يتكثّفُ مع كلِّ زفرةٍ
ويتطاير متى ما فتحنا النوافذَ
بحثًا عن هواء.

الثوبُ نُودِعُهُ طاقاتِ التذكّرِ
ونُودِعُ فيه نسيانَنا الأصفر.

مؤسسة دار الجديد

كلامٌ قليل

النظرُ إليكِ
كالنظرِ إلى الحياةِ نائمةً
حينَ كانت الحياةُ النائمةُ طفلةً
والمهدُ سباتُها العميق.

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

كلامٌ قليل

بمثلِ هذا القَدْرِ من اللامبالاة،
أُلقي نظرةً على الأيامِ الماطرةِ في حياتي
وباكتراثٍ أقل
أستقبلُ الأسرارَ التي في الصخورِ والنباتات
وتلك المكنونةِ في زَبَدِ الموجةِ التي اعتليتُ
عندما أخذتُ الهواءَ بملءِ الصدرِ
عندما سقطتِ الثمرةُ أسفلَ الشجرة
عندما أمسكتُ بالأسرار
ويدي مليئةٌ، وفارغة.

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

كلامٌ قليل

إعادة تركيب «الحفاظ على الأشياء كاملةً»
لـمارك ستراند[1]

«في الحقلِ»
أو في غيابِ الحقل، حضورُ الفراغ
لا تُرى عينُ الحاصدِ الرائي أو عينُ الطير
وعندما أمشي لا أقصدُ أيَّ مكانٍ
لا أذهبُ إلى أيِّ مكان
فأنا حارسُ الأشجار، الوليُّ على العناصر.

«لكم كلُّكم أسبابُ الحركة
أنا لا أتحرّك كي لا أزعزعَ نظامَ الأشياء.»

أنا الظلُّ الذي في الحقول.

---

(١) «في الحقل، أنا غيابُ الحقل؛ هكذا هو الأمر دائمًا. أينما حللتُ فأنا ما يُفتقد. عندما أمشي، أفارق الهواء، ودائمًا ما يتحرّك الهواء ليملأ الأخلاء، حيث كان جسدي. لكلّنا أسبابٌ للتنقّل. أنا أتنقّل لأحافظ على الأشياء كاملةً»، مارك ستراند، **قصائد مختارة**، ١٩٧٩.

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

كلامٌ قليل

ناظرًا إلى الخلف
مفارقًا صورتَهُ
الواحدُ، يرفعُ اليدَ ملوّحًا
كما لو يودّعُ الشخصَ الذي كانَه
أو يحيّي فكرتَهُ التي سيأخذُها أينما ذهب.

الواحدُ
يرفعُ اليدَ، ملوّحًا.

مؤسسة دار الجديد

لذكرى الحبيب السعيد، خال أمي وعمّ أبي
رسول بن الشيخ علي الخنيزي

إلى الذي بيني وبينه
هذا الغياب

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

إلى الذي بيني وبينه هذا الغياب

الراحلونَ في قافلةِ الغيابِ
أرواحُكُمُ ما بَرِحت تضيءُ هذا المكان
لِطيبِ أنفاسِكُمُ إذ تهفهفُ
تتقافزُ الأضواءُ
وتنثالُ من وَحشَتِنا الظّلال.

في الدمعِ الذي توسّلنا
كان خيالُكُمُ يشتاقُ محبِّيهِ
كما كنتُمُ:
الواصلينَ
العاطفينَ
السابغينَ محبّتَكُمُ، دونَ انتهاء.

مؤسسة دار الجديد

إلى الذي بيني وبينَه هذا الستار

وقفْنا بِرَيْحانِ مرقدِكم
فتَراءَت لَنا الروحُ الرضيَّةُ تسابقُ الطيرَ
ارتضَيْنا طيرانَ الروحِ فيها
ورُقادَ ما كان من الأحبّةِ
في عميقٍ أو غائرٍ من المكان.

مؤسسة دار الجديد

إلى الذي بيني وبينه هذا المدى

يومَ ضاعَ الصوتُ
والعَبَراتُ كانت ما يُحسِّسُنا.

كنتمُ الظلَّ الذي تفيأنا دونَ أن نلمحَ انحسارَ
الظلِّ
أكانت هي شمسُ الكسوفِ تخذِلُنا
أم هو سادِنُ الوقتِ أيقظَنا.

وقوفًا بكم:
الوردُ، ما أطلَّ على أوانيهِ التي تأرَّقت
آنيةُ الوردِ ما ملَّت ولا احتسبت:
صحراءُ من الفَقدِ كان طالِعُها
ومن عوسجِ البرِّ كان المذاق.

مؤسسة دار الجديد

حنانيك يا عمُّ، ما سَلَوْنا فوحَ الوردِ الذي كنتم
ولا البسمةَ الفَيَّاضةَ
... ولا قلَّ اشتياقُنا لما منحتَ من الدلال.

ما سلونا بعدُ الشخصَ الذي كنتَ
ما انغمسنا بعدُ في العيشِ
والعيشُ سلوتُنا عن الموتِ
كما الموتُ: سلوتُنا في المَعَاش.

ثلاث رسائل إلى عادل خزام

مُعايَشَة

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

(١)

هكذا إذًا استحوَذتك القناعة!

مـا همّنـي أبـدًا أن أجـدَ تخريجـةً لمـا أقـولُ ولا أفعـل، لكننـي حيـث تتواجـدُ الأوهـامُ أتواجـد، سـابحًا معيّـةَ سـربٍ مـن طيـور السـنونو... ولـم لا؟

بعـد أن ذهبـتَ عنـي لملمـتُ لغاتـي مـن قارعـةِ البحـر ودفعـتُ بكفّـي فـي وجـه الأصدقـاء قاصـدًا: أن لا!... وهكـذا ترانـي منكفئًـا فـي البحـثِ عـن الأشـكالِ وعـن نهاياتهـا. وسـتتأكّدُ أنّنـي بعنـادِ القُبَّـرةِ سـأفصحُ عـن لغـةٍ توائـمُ وهمًـا أكثـرَ إيغـالًا فـي الفطـرةِ، وفـي التوحـش.

فـي الأيـامِ أتاجـرُ بيـن الوظيفـةِ والمـأوى، بعرقـي. أحيانًا ليسـت بقليلـةٍ أتاجـر بخلاصـةِ ذهنـي ثـم أرجـع بفـمٍ ملـيءٍ بأوحـالِ المتربـة... لا تـؤازرُ قناعتـي سـوى أوجـاعِ الصدمـةِ القائمـة.

فـي العَـراءِ أصطنـعُ الحضـارةَ كمـا تلقّيناهـا فـي الفصـلِ وفـي ركـنِ المجلـسِ الأبـويِّ وفـي الأماكـنِ الأخـرى التـي نتراكـضُ فيهـا بحثًـا عـن ذواتنـا التائقـةِ إلـى الفضيلـة. ويبقـى جنـونُ ميشـيل فوكـو هـو الأكثـرُ حضـورًا حيـث نتبـادل اللغـو: فـي المـزاداتِ أو فـي المسـالخِ أو فـي دور الأوبـرا.

فـي السـرِّ يصفعُنـي بصـورةٍ عارمـةٍ الشـوقُ إلـى أن أخـادعَ نفسـي وأعـودَ إلـى جرائـمِ الكتابـة لكـنّ العزيمةَ أضعـفُ مـن أن تُسـاقَ سَـوْقَ الأُسُـودِ إلـى الفرائـس.

ولكنني، بهكذا، لا أقولُ جديدًا...

مؤسسة دار الجديد

(٢)

انظرْنـي بعيـنٍ أخـرى، لعلّـك تـرى إلـيّ وأنـا أُجافـي الوقائـعَ، حامـلًا النوايـا عاليًـا، مخافـةَ انهراقِهـا فـي العسـلِ الـذي أكادُ أغـرقُ فـي منابعِـهِ الفجّـة .ذلـك هـو الرضـا والاسـتئناسُ إلـى الوحشـة المطلقـة، والاسـتيهامُ والتواطـؤ كمـا لـم نعرفْهُمـا مـن ذي قبـل... أنعرفهُمـا؟

فـي البَـدءِ، أظنُّـك تظـنُّ أنّـك عـارفٌ مـا الـذي فـي البَـدء... أو لربمـا كنـتَ مثلـي تـدركُ أنّ المعرفـةَ هـي ما نتربّـصُ بـه لإخفائِهـا، ثـم إنّنـا نمـارسُ وصفَهـا الشـائن.

مؤسسة دار الجديد

هنالـك الآن مراوغـةٌ عظيمـةٌ وشـائنة أنخـرِطُ فيهـا مـع عسـلِ الأشـياء: مـع الرضـا... شـفيعي فـي ذلـك كلِّـه حفظـي للنوايـا غافيـةً فـي محملـي الجـمِّ لهـا إلـى أشـدِّ المخابـئ تلوّثًـا بالرأفـةِ والحميميّـة.

هكـذا إذًا، هـي اشـتباكاتُ المعانـي والمرجعِيّـات وهـذا هـو الوضـوحُ يتـأوّجُ علـى صهـوةِ خيـولٍ تتهـاوى فـي أخبـثِ المـدارِكِ وأروعهـا بـلادةً وخمـودًا.

وأنت؟

(٣)

هـا هنـا، حيـث تندحـرُ الرغبـاتُ إلـى البَـدء، ينتصـرُ الحنيـن، وتبقـى مليئـةً بالطلاسـم واللِّعَـنِ أماكـنُ أرضيّـةٌ نهفـو إليهـا كلَّ حيـن. هـا هنـا واحـدٌ مـن هاتيـك الأماكـن.

فـي الأفـق، بعـد التقـاءِ النـورِ بالأمـواهِ وزبـدِ البحـر، ألـقٌ يهـربُ مـن أيدينـا كالسـرابِ سـاعةَ يتعاظـمُ العطـش. هـوَ ذا المشـهدُ الـذي نـرى دائمًـا: ننبعـثُ فـي الأيـامِ ونندمـجُ إلـى حيـنٍ ومغرياتهـا. ثـم إننـا بعـد ذلـك الانغمـاس نبحـثُ عـن السـموِّ، أو هكـذا يُخيَّـل لنـا.

فـي الغـرفِ المعتمـةِ، يأتـي النـورُ عبـرَ الكُـوَى الصغيـرةِ ويسـتطيرُ فـي الـذّراتِ المبثوثـةِ فـي الطقـس. هنالـك دائمًـا فـي الزاويـةِ التـى لا نـرى، علـى الضفّـةِ الأخـرى مـن الأماكـن، يلبـثُ النقيـضُ الأكثـرُ غموضًـا ووَعْـدًا... دونَـهُ سـنبحثُ دونمـا كلـلٍ، وسـنتأبّى علـى الحكمـةِ التـي تقـول أنْ توقّفـوا!... عبثًـا مـا تفعلـون!

سـنبحثُ دونمـا تبصّـرٍ، عـن السـرابِ فـي أيامنـا، وعـن الأرواحِ فـي الليالـي: تظـلُّ أشـياؤنا قريبـةً مـن التمنّـي، قريبـةً مـن الذكـرى، بعيـدةً عـن نـورِ أعيننـا وعـن القبضـاتِ التـي نملـك

هو ذا اللَّهَجُ الذي يكرّسُه الحنينُ، دائمًا.

القاهـــــرة

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

أنـا والمقطَّـم. مثلُنـا كاثنيـن متحابَّيـن، يعتـزِلان جانبًـا، يتشـاوران بحميميـةٍ ظاهـرةٍ للعيـان. أنـا والجبـلُ الـذي أهبِـطُ مـن علـى سَـفْحِه بفعـل الجاذبيَّـةِ السـرّيّة، لأرى بمـلءِ العيـنِ قاهـرةَ المعـزِّ: المدينـةَ التـي تحـومُ الأسـرابُ حولهـا والأحـلام.

المشـــهدُ قلعـــةٌ تُرخـــي بظلالهـــا المائلـــةِ، فـــي اصفـــرارِ الشـــتاء، علـــى المشـــهدِ الـــذي يليهـــا: شـــوارعٌ إســـفلتيّةٌ نديّـــة تتقاطـــعُ مـــع المـــآذنِ السّـــامقةِ كـــي تؤلِّـــفَ، لا مندوحـــةَ مـــن ذلـــك، غربـــالًا، كالمُنْخُـــل شـــبكتُهُ تمـــرّرُ، دونمـــا تذمّـــرٍ، المســـاءَ المســـرنمَ الـــذي يتمكّـــن مـــن فُوَّهـــةِ الأحيـــاءِ القاهريَّـــةِ ويتبـــدَّى كالهُطـــولِ الناعـــمِ علـــى الحدائـــقِ والمصاطـــبِ المتلاصقـــةِ، علـــى المشـــربيّاتِ التـــي تحجـــبُ الـــدفءَ خلفَهـــا، وعلـــى النهـــرِ الملتـــوِي كالشـــرايينِ فـــي ظاهـــرِ يـــد النُّوتـــيِّ الـــذي يُنـــزِّلُ الدَّقـــلَ علـــى دكَّـــةِ المركـــبِ النهـــريِّ... ويحـــدِّقُ بعينيـــهِ الغائرتيـــنِ فـــي طبقـــاتِ الرّمـــادِ الناعمـــةِ لذلـــك المســـاء.

فـي مثـلِ هـذه اللحظـةِ يكـونُ مناسـبًا أن يتوقّـفَ الزجّاجـونَ عـن نفـخِ الأشـياءِ الصّقيلـةِ مـن حجـرِ المَـرْوِ المصهـور، والدبّاغـونَ عـن جمـعِ الجلـودِ والفـروِ فـي بـاب اللُّـوق. وبعـد قليـلٍ سـيرحلُ الملـلُ عـن قلـوبِ أولئـكَ الذيـن حَسَـبوا السـاعات فـي بـابِ زويلـة وفـي الحسـين، وسـينفثونَ الأشـباحَ الخارجـة مـن روحِ التَّبـغِ الخالـصِ وجوهـرِ الفاكهـة، سـيرخونَ أرجلَهـم الصلبـةَ علـى الأخشـابِ المهيّـأةِ لذلـك، وسيُرسِـلونَ، دون شـكٍّ، وإلـى الأعلـى، كَرْكـرةَ الأرجيلـةِ الوقـورة.

فـي بـابِ النصـرِ هنالـكَ النقّاشـونَ والصبّاغـونَ الذيـن سيسـتعجِلونَ الصِّبيـةَ فـي مَـلءِ مـا تبقّـى مـن الجـرادلِ والجــرارِ بالمــاءِ الملــوَّنِ والأصبــاغِ التــي ستوسِــمُ الأَقمشـة... قبـلَ أن تــذوَى تفاصيـلُ النهـارِ فـي جـدرانِ المنــازلِ وأســوارِ الأضرحــة الحيَّــةِ وقطــعِ الطــوبِ المنثـورةِ فــي تراتــبِ الزّمــنِ العتيــق.

عندما يَتَوَقَّفُ النَّهارُ المترفُ بالضجيجِ أمامَ الناسِ الذين يحسبونَ الأيامَ، وينشرُ في الأزقَّةِ ظلالهُ الريّانة، تتلألأُ كُوى العمائرِ والمساجدِ والمقاهي والسُّرادقِ بنورٍ يخرجُ من أعينِ العالمين. أعمدةٌ ومحاريبُ تنتظمُ في نسَقٍ مديدٍ لا يهزُّ رتابتَها سوى المسارةِ في الزوايا. والريحُ وحدها تهيمنُ على الفراغاتِ التي يتنحَّى عنها البشر.

اللَّيلُ يرتمي كالغلالةِ السوداءِ المثقوبةِ على الهاوية. أكوازُ الذرةِ تنأى بعيدًا باتّجاه النيلِ في العربات المنقوشةِ بالأخضرِ والأحمرِ، وبالحكمةِ المتوارثة... إلّا أنّ هواجسَ المدينةِ ليست على الضِّفافِ النهريَّةِ... بل هيَ على ضفاف المهودِ الخاليةِ، التي لم نُكمِل فيها أحلامَنا... ضفافُ القاهرَة القديمةِ: الوجوهُ، الأزقَّةُ، السّاحاتُ الصَّغيرةُ الحاشدةُ بالأملِ القديمِ، الأولادُ المتدافعونَ على السَّبيلِ وجُرعاتِ المياهِ الصّافية... المدينةُ ذاتُ الجسدِ الشائكِ، العارمِ، الحيّ، المتواصلِ، الدَّائبِ في حَركتِه.

يحـرِّكُ المـارّةُ، عندمـا يكـونُ الليـلُ بكـرًا، هواجـسَ المعمـارِ، ونبضَـهُ المُتْـرعَ بالحنيـن، وصفاتِـه التي ترتسـمُ علـى هيئـةِ يـدٍ ملمومـةِ الأصابـع تعبِّـرُ بحمـاسٍ دؤوبٍ عـن الأجمـل. هـي المدينـةُ التـي تتحـرَّكُ كالأرابِسـك عندمـا نلحَظُـهُ ونحـنُ نهـزُّ رؤوسَـنا علامـةَ الرِّضـا، أو كالقِيْشـاني المبهـورِ بحـرارةِ البخـارِ وحديـثِ المرتاديـنَ فـي المقاهـي.

لـدى مسـجدِ ابن طولـون مِئذنة ملويـةٌ صغيرة، وأقمشـةٌ مـن الوبـرِ والكَتّـانِ القاسـي، تُغطّـي فراغـات المحاريـبِ منقوشـةٌ بعبـاراتٍ مباركـة. فـي الطريـقِ إلـى سـوقِ الورّاقيـن نافـذةٌ مِصرعاهـا جاهـزان دومًا لاحتضـانِ امرأةٍ تنظـرُ إلـى البعيـدِ، خلفهـا العتمـةُ الضروريّـةُ للمشـهد. النافـذةُ الأخـرى تسـتضيفُ أطفـالًا رُضَّعًـا يتكالبـونَ علـى أسـياخِ الحديـدِ المتصالبـة.

أمـا النافـذةُ التـي لا تُطـال، إلـى الأعلـى، فهـي تَمـورُ بالمشـاغلِ والعُلَـبِ الصّغيـرةِ وأوانـي البيـت. هنالـك دائمًـا مداخـلُ للشـرفاتِ والرّدهـاتِ العائمـةِ فـي المعمـارِ البلـديّ، تتهيّـأُ للمجلـسِ الحميـمِ، للمأدبـةِ الطافحـةِ بالأخبـارِ، والأمنيـاتِ، والشـكوى: امرأتـان إحداهمـا تمـدُّ يـدًا فـي الفـراغِ مؤكـدةً مـا تقـول ــ الأخـرى تُنْصِـتُ بإذعـانٍ لا يُبـارى، يداهـا مُثقلتـانِ بأسـاورِ الفضّـةِ وبالأحجـار.

علـى أحـدِ الأسـطحِ هنالـكَ دائمًـا كـوبٌ مـن الشـاي المصعّـد. منضـدةٌ وكرسـيٌّ مبتسـران. هنالـك تطفـو الآمـالُ علـى ضجيـجِ الزقـاقِ، ونـداءِ الباعـةِ، وإيقـاع المقاهـي، وصـوتِ نـردِ الزَّهـرِ يسـقطُ مـن الأيـدي المتوفّـزةِ الباحثـةِ عـن الفـوزِ، وطـرْقِ الأبـوابِ، وصريـرِ المزاليـج، والأحاديـث إذ تعبـرُ السـلالمَ والطّاقـات وتلتحـمُ بنبـض القلـبِ.

فـي داخِلـكَ دائمًـا، خنـوعٌ أمـامَ المـدنِ العظيمـةِ التـي تسـطو عليـكَ كمـا يسـطو اللّيـلُ ويتمكّـنُ منهـا. هنالـكَ فـي المـدنِ الكبيـرةِ عزلـةٌ أكبـر... إلا فـي القاهـرة. هنالـكَ، فقـط، الأُلفـة...

شقيقة الرّوح، شاديَة

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

ما كان لذلك البابِ أن يُفتحَ كاملًا ولا أن يُغلق. كان له أن يظلَّ بينَ ـ بين؛ لأنّ حيواتِنا ما كانَ لها أن تختلطَ أو أن تتداخل. كان لها أن تتجاورَ بفعلٍ لسنا نعرفُ، تمامَ المعرفةِ، سحرَهُ أو لعنتَه. تلك الحيواتُ التي مرَّت كشريطٍ من الوجوهِ للناسِ الذين أحبَبْنا وألِفْنا في هذه المعيشةِ التي تحدث، التي تُجاورُنا كما يجاورُنا الألمُ دائمًا. هكذا... نحتاجُ إلى التعطُّفِ... إلى الحنينِ الذي يستغرقُ أيامَنا ولياليا... والتوقِ إلى ما لا يُستعاد.

وجوهُهم كانت خاطفةً وتُلمَح لمحًا، أولئك الناس الذين شاركوني لحظتَها دفءَ الصدرِ وعبقَ القُرب... أولئك الناس الذين نَغَّصُوا عليّ الاندغامَ في ما أرى وأحيا لحظتَها.

النارُ التي صعدتْ في دماغي... أهي نارُ الرغبةِ أم نارٌ أخرى، نارُ المعرفة؟

أكنتُ لحظتئذٍ بحاجةٍ لكي أعرفَني؟ لأعرفَ إلى أيِّ مدًى كانت تلافيفُ النفسِ تختزنُ القلق. لستُ لأسمعَ الآن صوتًا أو أرى... إلّا ذلك المشهدَ وتلك الصفحةَ البيضاءَ الصافية: القبولُ... المجاورةُ... كنتُ أشعرُ أنّي مَلِكُ اللحظة.

ندمـي ليـس كثيـرًا ولا قليـلًا ، ندمـي يناسـبُني... نـدمٌ أليـفٌ يجاوِرُنـي ويشـارِكُني عـبءَ المعيشـةِ ولحظـاتِ اندغامـي فـي درامتِهـا البهيّـةِ والبائسـةِ سـواءً بسـواء. نـدمٌ أليـف أخذَنـي إلـى مناطـقَ وتخـومٍ مـا كان لـي بدونـه، لأصـلَ إليهـا، وإذا مـا كان فـي مـا أَصِـلُ إليـه ألـمٌ وضعـفٌ وفقـدان... ففيـه أيضًـا نـورُ الكشـفِ، وبهـاؤه.

ترانـي لحظـةً متفرّجًـا حياديًّـا، ولحظـةً أخـرى متقبّـلًا للنِّعـمِ واللَّـعَـنات التـي تَهَبُنـي إيّاهـا المعيشـة. وترانـي لحظـةً ثالثـةً إلهًـا مـن آلهـةِ الإغريـق بمطـري وزوابعـي، بحبّـي وقلقـي، برغباتـي الفـوّارة، وبتقـواي المتصوّفـة. ندمٌ؟... ولماذ؟

نـدمٌ لأنّـي أرانـي الآن قـد كنـتُ عبـدًا وكنـتُ إلهًـا فـي الوقـتِ ذاتِـه، كنـتُ متفرّجًـا ومتقبّـلًا وفاعـلًا. ولكـن ألـم أكـن ـــ هكـذا دائمًـا ـــ مسـتغرقًا في المشـهد!

أرانـي ونـارٌ تصهـلُ مـن عُنقـي إلـى أصداغـي لتُصْلـي رأسـي المليئـةَ بالهواجـسِ والأحـلامِ: البـابُ الـذي لـم يُفتـح كامـلًا ولـم يُغلـق أبـدًا بإزائـي. وقريبـةٌ بعيـدةٌ، تلـك التـي لا تُسـمَّى ولا تُوصَـف، شـقيقةُ روحـي دونَ أن أدري (أدري)، التـي يجمعنـي وإيّاهـا حبـلٌ سـريّ كان يومًـا مـا ضـوءَ حياتِنـا الـذي اعتدنـاه، وظـلَّ حتّـى بعـدَ غيابِـهِ، حاضـرًا فينـا، مـكانَ فرحتِنـا وأوهامِنـا وموضـعَ غرورِنـا وتواضعِنـا. التـي كانـت قـابَ قوسـين أو أدنَـى وكانـت بعيـدةً فـي الوقـتِ ذاتـه.

أرانـي مـرةً أخـرى وأنـا أقتـربُ مـن شـقيقةِ روحـي التـي تطارحُنـي أنخـابَ الألـمِ وأنشـودتَهُ الدائمـة، ألمُنـا القليـلُ الـذي يأتـي لكـي يضعَنـا علـى حافّـةِ الأشـياءِ، حافّـةِ الهاويـةِ وحافّـةِ النعيـمِ، ألمُنـا الـذي بـه نحيـا، وبـه نـرى أنفسَـنا تتقـاربُ وتتباعـد، وبـه تصبـحُ الحيـاةُ ذاتَ معنـى... شـقيقةُ روحـي التـي ابتعدنـا كـي نقتـربَ واقتربنـا كـي نبتعـدَ يصاحِبُنـا التأمّـلُ فـي مـا آلـتْ إليـه مصائرُنـا.

شـقيقةُ روحـي التـي صرنـا دون أن نـدري (...نـدري) حكايـةً وأمنيـةً وحلمًـا لا ينتهـي، يُقـالُ ويُذكـر، لكـي تكـونَ حيـاةُ مـن يقولُـهُ أكثـرَ ثـراءً بالحلـمِ ليـس إلّا.

أرانـي أسـتمعُ وضـوءٌ قليـلٌ يُـضيءُ نصـفَ الوجنـةِ المـدوّرةِ، الشـفيفةِ، التـي بقـدرِ مـا يعتليهـا مـن أسًـى؛ تحيـطُ بهـا هالـةٌ مـن الحيـاةِ الخاصّـة، هالـةٌ لا تُسـمّى ولا تُوصَـف، ليـس لأنّهـا الأكثـرُ جمـالًا، بـل لأنّهـا الأحلـى روحًـا. أسـتمعُ ويعتصرُنـي تـوقٌ إلـى مـا لا يُسـتعاد، يعتصرُنـي أسًـى، ويعترينـي حبـورٌ بالحضـرةِ ذاتهـا، بالحضـورِ، بالاحتفـاءِ الـذي يحـدثُ ويتابـعُ شـقيقةَ الـروح هـذه.

أرانـي متنعّمًـا بالحضـرةِ، مأخـوذًا بهـا، مسـتغرقًا فـي التـوقِ إلـى مـا لا يُسـتعادُ أبـدًا. جالبًـا وإيـاي إلـى هـذه الغرفـةِ ذاتِ البـابِ الـذي لـم يُفتـح كامـلًا ولـم يُغلـق تمامًـا، جالبًـا حُطـامَ أحـلامٍ كثيـرة، نثـارَ رغبـاتٍ دفينـة، جالبًـا نفسـي المتوحّـدةَ فـي كبريـاءِ المظهـر، الملعونـةَ بالأوهـام، الشـاردةَ فـي أحـلامِ يقظتِهـا، التـي تختلـطُ عليهـا الأماكـنُ والأزمنـةُ... جالبًـا روحـي المكسـورةَ وقـد اختلطـت علـيّ الأشـياءُ مـن جديـدٍ لا أميـزُ بيـن ذلـك الهديـلِ الـذي يأتـي حانيًـا وخالصًـا مـن فـوقِ قمـمِ صوتِـكِ المتعـبِ... وبيـن نشـيجِ الـروحِ المضطربـة فـي إسـارِ دواخلـي الفقيـرةِ إلـى الحنـان. لا أميّـز بيـن حاجتـي لمـاءِ الحيـاةِ ورحيقِهـا الماثـلِ أمامـي وبيـن نـداءٍ أكثـرَ عُمْقًـا، أصيـخُ السـمعَ إليـه الآن فـإذا هـو قـد صـارَ ضاجًّـا وصاخبًـا.

أرانـي وقـد هممـتُ بـكِ مُعتصـرًا إيّـاك، مُنصهِـرًا فـي أخـلاطٍ مـن العاطفـةِ والرغبـة.

أيّةُ عاطفةٍ وأيّةُ رغبة؟

كيـف لـي، يـا شـقيقةَ روحـي القديمـة، يـا التـي وعيـتُ إلـى اسـمي فـإذا هو جـوارُ اسـمكِ قريـبٌ بعيـدٌ، ووعيتُ إلـى الوجـوهِ الأليفـةِ حولـي فـإذا وجهُـكِ حاضـرٌ بيـن الوجـوهِ التـي أعطتنـي معانـيَ الأشـياء وتحنانَهـا... علـى أنّـه، وهـو الأكثـرُ التماعًـا بمـاءِ الحيـاةِ... هـو الأكثـرُ حضـورًا وغيابًـا فـي الوقـتِ ذاتِـه، هـو الأكثـرُ مجيئًـا ورواحًـا، الأكثـرُ انخطافًـا وتحـوّلًا وانغماسًـا فـي فصـولٍ هـي الأقـربُ لملحمـةِ الآلهـة.

عندما لثمتُكِ واعتصرتُ أضلعَكِ كنتُ أغرقُ في نعمةٍ أكبرَ من طاقتي على الحياةِ وأكثرَ بهاءً من قدرتي القليلةِ على الحياةِ ذاتِها، على الموتِ ذاتِه.

كنتُ مأخوذًا بنداءٍ قديمٍ قِدَمَ الحبلِ السريِّ الذي رَبَطَنا... الحبلُ السريُّ الذي يضعُنا على حافّةِ الأشياءِ بين ما يُقال وما يُسكَتُ عنه.. بين ما يُحكى في أواخر الليلِ وما يُكبَتُ طيَّ السرائرِ والأكفان، وكأنه مُقدّرٌ له أن يظلَّ حبيسَ قلاعٍ من الصمت التي هي في ذاتِ الوقتِ قلاعُ أُلفتِنا الماثلةِ، التي تمنحُنا جمالها دونَ انتهاء.

كان حـذري أنّ أُلفـةً قـد تُنتهَـكُ وجمـالًا ألفناهُ وعايشـناهُ وأبصرنـاهُ بضـوءِ أعينِنـا سـوفَ يُنتهَـك. هاربًـا كنـتُ لحظتَهـا مـن كلِّ شـيءٍ، فقيـرًا متلهّفًـا إلـى تحنـانٍ مـا كان لـه أن يكتمـلَ منـذُ افترقـتْ مصائرُنـا، فقيـرًا إلـى مـاءِ الحيـاةِ الـذي غرفـتُ منـه فـي لحظـةِ العطـشِ تلـك جَزِعًـا إنْ كان سينسـربُ إلـى الأبـد، مـن بَيـن أصابعـي.

ألا تقولُ شيئًا؟

مـا الـذي كنـتُ أقـدرُ أن أقـولَ فـي تلـك اللحظـة أنـا الهـاربُ؛ يخفـي مظهـري الرزيـنُ طيشـانًا والتياعًـا هـو زادي يرافقُنـي حيـث رحلـتُ أو حللـت.

كنـت مندفعًـا ومقبـلًا، هاربًـا ومراوغًـا فـي تلـك البُرهـةِ الخاطفـةِ السـريعةِ المليئـة، أسـترجعُها الآن ليـس لكـي أسـترجعَ تفاصيلـي بـل لكـي أسـترجعَ تفاصيلَـكِ أنـتِ أيضًـا.

كنـتِ تحنانًـا لا يُنسـى، ندمـي الـذي يعـضُّ دواخلـي هـو أنّنـي لـم أتمـلّاهُ لحظتئـذٍ. وإذا مـا انسـربَ شـيءٌ مـن بيـن أصابعـي فهـو ذلـك التحنـانُ، تلـك السـحنةُ التـي اعتلتْـكِ؛ حسـرتي أننـي لـم أدقّـق فيهـا كيمـا أرى صفـاءً لـن أكـونَ بعـدَهُ كمـا كنـتُ مـن ذي قبـلُ، أبـدًا.

ماذا أقول؟

الآنَ فقـط أدركُ أننـي هربـتُ ممـا يُقـال وممـا يمكـنُ أن يُحكـى بعفويّـةٍ ودونَ كثيـرٍ مـن التقصُّـدِ ذلـك أنـه معـروفٌ كمـا هـي معروفـةٌ مصائرُنـا التـي افترقـتْ. هربـتُ ممـا يمكـنُ أن يُقـالَ مِـلْءَ كلمـةٍ واحـدةٍ هـي الأصعـبُ... مخافـةً أنّ فـي القـولِ مماتَهـا، كان حـذري أن أتفوَّهَهـا فيكـونُ فيهـا ألمـي وألمُـكِ الـذي لـن ينتهـي، أن يكـونَ فيهـا شَـرْخُ روحينـا؛ شـرخٌ يتعدّانـا ويهـزُّ عـرشَ الأُلفـةِ التـي ننعـمُ بهـا كلّنـا، نحـن مـن رَبَطَهـم ذلـك الحبـلُ السـرّيُّ الـذي هـو ضـوءُ حياتِنـا ومجدُهـا، ومـا يمنـحُ أنفسَـنا القلقـةَ لحظـاتِ سـكونِها وطمأنينتِهـا.

تَشَـــــــبّـــب

مؤسسة دار الجديد

متن

الطوفـانُ فـي الملامـح، فـي اللـونِ وهـو يتمـاوجُ علـى الأطـرافِ، علــى الأنامــل. تجعُّــداتُ الجلــدِ الرقيقــةُ والخطـوطُ الملتويـةُ للجلـد وهـو يغطّـي سـقفَ الأنـفِ إلــى كهــفِ عينَــيَّ، إلــى عظــام الوجنتيــن. مــا هــو مكنـونٌ فـي الأسـطحِ ومـا يَخْطِـفُ البصـرَ ويَسْـتَحوِذه فـي المنحوتـةِ أو فـي النقـشِ البـارز: بـروزاتُ الجسـدِ فـي عظمـةِ الرسـغِ أو الكاحـل، الأخاديـدُ الغامقـةُ التـي تسـتقرُّ فيهـا العينـان، الواديـانِ بيـن الكتفيـنِ والرّقبـة، امتداداتُهمَــا حتّــى التَّرْقُــوة، تفاحــةُ آدم تتحــرّك كلمــا بلعــتُ الريــق، الأوردةُ النافــرةُ فــي اليديــنِ والقدميــنِ وفـي باطـنِ الذراعيـن، زخرفـةُ الظـلالِ الخفيفـةِ ترافقُهـا وتتـلألأُ كلّمـا تحرّكـتْ أعضـاءُ الجسـد وأسـطُحُه... رفيـق الولـع.

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

هامش

كيـفَ هـي مخاوفـي مـن المـوت؟ مـا الخيـالاتُ التـي تحـومُ أمـام عينـيّ، حـولَ المـوت، كيـف سـأموت؟ مـا الحالـةُ التـي سـتكونُ عليهـا عينـاي، ملامحُهـا، وملامـحُ المـوتِ وهـو يتسـلّلُ داخِلهـا؟ أهـو مـوتُ فـزع؟ فيـه حـالُ الهـروبِ ممّـا يدمّـرُ الحيـاةَ، فيزيائيًّـا... الخـوفُ، ربمـا مـن مـوتٍ فيـه عقـابٌ للجسـدِ علـى ابتذالاتِـهِ، تعاسـاتِهِ ووحدتِـه، ونزعاتِـه... أم هـو مـوتٌ مستسـلمٌ تنطفـئُ فيـه الـروحُ، ربمـا، حيـن تغلِـبُ علـى الملامـحِ النظـرةُ المجوّفـةُ لمـن يطفـو علـى سـطحِ بركـةٍ، نظـرةٌ إلـى الفـراغِ، إلـى السـماء، مـوتٌ يطهّـرُ الجسـدَ مـن بقايـا روحٍ داكنـةِ الظـلال.

علـى مـا أتذكّـرُ، أو ربمـا أتخيّـل، كـون ذلـك حـدثَ فـي الطفولـةِ الباكـرة، عندمـا أتمـرّضُ يحـدثُ أن أرى مـن يطـلُّ علـيَّ مـن أهلـي وأنـا فـي السـريرِ الصغيـر، ذي الجوانـبِ العاليـة، وكأننـي أتمـدّدُ فـي قـاعِ بركـةٍ تغمرُنـي فيصعـبُ علـيَّ النَّفَـس. عندمـا كنـتُ فـي الخامسـةِ بُليـتُ بضيـقِ النَّفَـس، ربمـا كانـت حالـةَ رَبْـوٍ، ظلَلـتُ خلالهـا أتلقّـى إبـرًا يومًـا بعـدَ يـوم، ولشـهورٍ طويلـة. وكنـتُ فـي لحظـاتِ الدَّوَخـان، أرى مـن يُطِـلُّ علـيَّ وأنـا فـي خِنـاقِ نَفَسـي وعينـاي مغرورقتـانِ وكأنّـي تحـتَ المـاء.

هـا أنـا قـد وصفـتُ المـوتَ غرقًـا حيـث يكـونُ الدمـارُ للنّفَـس، يكـونُ الخـلاصُ مـن الـروح، فـي حيـن يتنعّـمُ الجسـدُ برطوبـةِ المـاءِ ببلاسـمِهِ، ببرودتِـهِ المحبّبـة فـي يـومٍ قائـظ. الـروحُ تتسـلّلُ برفـقٍ تـذوبُ فـي المـاء ويظـلُّ الجسـدُ مكتمـلًا بذاتِـهِ، سـاكنًا فـي خَـدَرٍ نهائـيّ.

المـوتُ الفـزع، الأوّل، لـم أضـرِبْ لـه مثـلًا كونـه هـو مـا يُفْزِعُنـي حقًّـا، المـوتُ احتراقًـا، ذلـك لأنّـي أحـبُّ الجسـدَ، أحـبُّ جسـدي أكثـرَ ممـا أحـبُّ روحـي. ربمـا أتعطّـفُ عليـه، أسـتكثرُ المـوتَ فـي حقِّـهِ أكثـرَ ممّـا أسـتكثرُهُ فـي حـقِّ روحـي، جسـدي الـذي مازلـتُ أراهُ بِكْـرًا، مجاهـلَ لـم تُكتشَـف، أحاسـيسَ بانتظـارِ مـن يلقاهـا.

مؤسسة دار الجديد

أما روحي فربما كانت قد اكتملتْ أو قاربَتْ... ربما كانت شائخةً لا بأسَ عليها أن تموت. أرى إلى روحي وعليها حالةُ السكينة دائمًا. الحكمةُ التي أعتزّ بها في روحي حكمةٌ تشبهُ الوهمَ، حكمةٌ خاصّة: أن تقتنعَ بأنك مالكٌ لحكمةٍ جوّانيّة، لا تدري كيف تكونُ مواضيعُها في الحياة، خارجَ الروح. معرفةٌ برناسيّةٌ لا فائدة عمليّة بها... لا في ما يتّصلُ بالعيشِ أو الكدحِ، ولا في ما يتّصلُ بالتعلُّقِ بالآخرين، بالحبِّ، الهُيام، الجفاء. معرفةٌ توازي الحياةَ ولا تلمسُها، معرفةٌ تناجيها وتناجيك بلغةٍ لا تنطِق، لغةٌ غيرُ صامتةٍ، نجوى السرائر تدومُ لساعاتٍ طويلةٍ وأيامٍ حتى... أيامٍ طوالٍ وليالٍ بيضاءَ تتناسلُ من بعضِها في هدوءٍ عميم.

يجلِسُ اثنان وينتقلان من اتّفاقٍ إلى آخر بلا كلام، يسهمانِ لدقائقَ تطولُ زمنًا، المحيطُ حولهُما فسيحٌ، وتصبِغُ وجهَ كلٍّ منهما ظلالٌ تتماوجُ ولا تتغيّر ألوانُها كما هو الأمرُ في يومٍ غائمٍ حين تكون الزرقةُ بدرجاتها سيّدةَ اللون... هكذا روحي تعيشُ حالةَ الزُرقة، الزرقةُ أكثرُ الألوانِ حكمةً، وندرةً في سيرةِ جسدي ومعاشِه، ربما لذلك كنتُ في حياتي أَمْيَلَ إلى الحُمُقِ مني إلى الحكمة... ذلك لأني ما أخلصتُ لروحي إزاءَ إغواء جسدي، جسدي الذي أحببتُ ومنحتُ جُلَّ اهتمامي ووقتي، أرعاهُ وأتشبّبُهُ وأهيمُ به.

أرانـي النرجـسَ الـذي رأى صورتَـهُ وعـاشَ هُيامَهـا إلـى الأبـد. الجسـدُ حيـث الحـسّ، حيـث الألـمُ واللـذَّةُ يتناوبـان، حيـث إدمـانُ اللـذَّةِ ومـا يكـونُ بيـن لحظاتهـا مـن ألـم: كلّمـا كَبُـرَتِ اللـذةُ كان الألـمُ أعمـقَ وأكثـرَ انغراسًـا فـي الأنسـجة. إغـواءُ الجسـد زَيّـنَ لـي أنّ الـروح سـتكون هنالـك دائمًـا: أن أهجرَهـا ثـم أعـودَ لحظـةَ يخذلُنـي جسـدي أو ينسـحبُ علـى ذاتِـه فأراهـا قائمـةً علـيّ... ترعانـي وتؤنسُـني فـي حدائقِهـا، فـي أماكنِهـا التـي تشـبهُ البيـوتَ ذاتَ الفنـاءِ المفتـوح... السـماءُ، والزرقـةُ تهبـطُ علـى المـكان...

عندمـا أرى الأزرقَ فـي حياتـي ترانـي أتلصّـصُ النظـرَ إليـه مخافـةَ أن يلحـظ تلصُّصـي وإحساسـي بالتقصيـر الـذي يصـل حـدَّ الجُـرْمِ فـي حقّـه... فـي حـقّ روحـي.

الإحسـاسُ بالتقصيـرِ لـم يعتقْنـي تمامًـا.. رافقنـي علـى الـدوام، كان هنالـك دائمًـا، بانتظـارِ أن تتقابـلَ عينـاي بذلـك اللـون... وعلـى ذلـك، فـإنّ الإغـواءَ أكبـرُ مـن أن يسـتوقفَني أمـامَ الشـعورِ بالذنـب. كان الجسـدُ ضجيعـي، أسـرقُ الوقـتَ لأتفحّصَـهُ أرى ظلالَـهُ علـى الجـدران وانعكاسـاتِهِ فـي المرايـا.

أرى نفسي فأعطيها من لغةِ الجسدِ، من الحركةِ، التي يراها الجسدُ الآخرُ في المرآةِ لأنه هو ذاتُ الجسدِ الأصل... وتتردّدُ نظراتٌ لا نهائيّة بين الجسدين، الخيالَيْن، الصورتين في اللحظةِ القصيرة، الهُنيهة التي أتعمّدُ أن تكونَ قصيرةً كي لا يلحظَني من يرافقُني، وأنا أهربُ عنه للحظةٍ سرّيّةٍ تمتدُّ في تبادلِ النظرات، تمتدُّ لسنواتٍ من النعيمِ السريّ في نشوةِ الخدر.

حالـةٌ مـن الطوفـانِ فـي الملامـحِ فـي اللـونِ وهـو يتمـاوجُ علـى الأطـرافِ، علـى الأنامـلِ، تجعّـدات الجلـد الرقيقـة والخطـوطُ الملتويـة للجلـد وهـو يغطّـي سـقفَ الأنـفِ إلـى كهـفِ عينـيّ إلـى عظـامِ الوجنتيـن، مـا هـو مكنـونٌ فـي الأسـطحِ ومـا يخطِـفُ البصـرَ ويسـتحوذُهُ فـي المنحوتـةِ أو فـي النقـشِ البـارز: بـروزاتُ الجسـد فـي عظمـةِ الرُّسْـغِ أو الكاحـل، الأخاديـدُ الغامقـةُ التـي تسـتقرُّ فيهـا العينـان، الواديـانِ بيـنَ الكتفيـنِ والرَّقَبـة، امتداداتهمـا حتّـى التَّرقُـوَة، تفاحـةُ آدم التي تتحـرّكُ كلّما بلعـتُ الريـق، الأوردةُ النافـرةُ فـي اليديـنِ والقدميـنِ وفـي باطـنِ الذراعيـن، زخرفـةُ الظـلالِ الخفيفـةِ التـي ترافقُهـا وتتـلألأُ كلّمـا تحرّكـت أعضـاءُ الجسـدِ وأسـطحُه.

عِشْـقٌ وتوحّـدٌ وحالـةُ غِنًـى عمّـا عداهـا، ولـعٌ يلازمُنـي حتّـى وأنـا فـي حضـرةِ الـروحِ أحادثُهـا الأحاديـثَ المتعاليـةَ وأُعجَـبُ بهـا، أبادلهـا الحـبَّ، ذلـك الحـبُّ الثابـتُ الصميـمُ الـذي يُـدْرِكُ فـي الوقـتِ ذاتـه، أن هنالـك ولـعٌ آخـرُ يزاحمُـهُ ويسـابقُهُ فـي نوبـاتٍ عنيفـة، هـو حـبُّ الجسـد.

على أنّني مع جسدي تُلازمُني فكرةُ الروح. روحي تكونُ حاضرةً أيضًا، عارفةً أنّ حبَّها هو الأقلُّ بريقًا وألقًا، هو الحبُّ الذي في المتناول بلا طلبٍ أو نضال، الذي تمتدُّ اليدُ إليه واثقةً أنّ في الطرفِ الآخر هنالك يدٌ ممدودةٌ ربما حزينةٌ، ربما تَعِبَة، لكنها دائمًا حاضرةٌ، كصديقٍ، تطبطبُ على كتفي، تهدهدُ على ما يَجيشُ ويعلو من اضطراباتي.

جسـدي لـم يأخُذْنـي، إذًا، كامـلًا، لـم أكـن مِلْـكًا خالصًـا لـه. الحكمـةُ، الـروحُ كانـت حاضـرةً لحظـةَ انصعـتُ إلـى جسـدي وبادلتُـهُ النظـراتِ التـي تتـردّدُ بيـن الرائييـن، أنـا وجسـدي، إلـى مـا لا نهايـة. حكمتـي كانـت جوّانيّـةٌ، باطنيّـة، حكمـةٌ مترفّعـةٌ متسـامية، كتصـوّفٍ، طـوافٍ في الأثيـر، لا تتقاطـعُ مـع مـا يحيطُهـا مـن المـادّةِ وصفاتهـا، ولا تغـرضُ إلـى أن تتماهـى أو أن تتـركَ أثـرًا فـي عالـمِ الشـهادة، فـي عالـمِ الجسـدِ الـذي تجـاورُهُ فـي الوجـود.

الجسـدُ الابـنُ المدلّـلُ عنـدي الطفـلُ الغريـرُ، والـروحُ هـي الابنـة التـي لهـا أن تتـركَ سـاحةَ المنافسـةِ ليكـونَ هـو بطلُهـا ونجمُهـا، رفيـق الولـع، ليـس لهـا أن تتّخـذَ جانبًـا مـن السـاحةِ وحسـبُ، بـل ربمـا حَسُـنَ أن تشـاركَ كيمـا ينصـبَّ الحـبُّ والـدلالُ عليـه فقـط. جسـدي ابنـيَ المُدلّـلُ بأفحـشَ مـا يتوجّـبُ أن يكـونَ عليـه الـدلال. وروحـي الابنـة المواليـةُ بأخلـصَ مـا يكـونُ عليـه الـولاء.

علاقتي بهما ليستْ علاقةَ خيار: بل علاقةَ مصيرٍ بمعنى من المعاني... الجسدُ صبيٌّ والروح صبية... الجسد رجلٌ والروح امرأة... يبدآن توأمينِ ويكبرانِ طفليـنِ يأخذانِ في التشكّلِ رجلًا وامرأة كلًّا على حدة. لكنّهما لا ينفصمان. هذانِ اللذانِ لا ينفصمانِ إلا في خيالي حولَ كيف يكونُ أن أموت: فناءُ الجسد أم فناءُ الروح.

حـــــــــكــــــي

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

مصافحة

عندما وضعتُ كفّي في تلك اليد المكتنزة، بأظافرِها المتآكلة، كانت ابتسامةُ المجاملةِ تتلاشى من وجهي مع العنفِ المصاحبِ لكلِّ هزَّةٍ ليحلَّ مكانها وجومُ الموت. تبًّا! أبهذه السهولة يكون موتي!

لم أُعجَب أبدًا بالأظافر الطويلة، حتى في أيادي النساء. لكنّني ما كنتُ لأطمئنَّ يومًا للأظافرِ المحفوفةِ بهوس المقراضِ والأسنان. حدسي أن من تستغرقُهُ هذه العادة لا بدَّ وأن يكونَ عصابيًّا أو مهووسًا لا يعرفُ الرحمة.

مؤسسة دار الجديد

رَجَعْتُ إلى مجلسي وسَورةُ الألم تمتدُّ كالأفعى من يميني حتى أواسطِ صدري. ظَلَلْتُ لزمنٍ لا أدري كم امتدَّ، أدلّكُ يدي المنتفخةَ وأجاهدُ في تهدئةِ لهاثي. لم أسمع حينها الثرثرةَ التي تحيطُ بي وما كان لأحدٍ منهم أن يلحظَني وأنا أموت. فأنا لست مستعدًّا لهذا، ولو أنّني ما أسبغتُ على شخصي كلَّ هذا الهدوء فلربما أَدْرَكَ أحدُهم كم أنا وحيدٌ، وفي حاجةٍ ليدٍ تتلقّفُني من هذه البئرِ التي أهوي في عمقِها.

كان فمـهُ يتحـرّك متلقفًـا السـيجارةَ ورشـفاتِ الشـاي ودفعـاتِ «الفصفـص» مـن ذاتِ الأصابـعِ وكان ينظرنـي بيـن لحظـةٍ وأخـرى بطـرف عينـه مـدركًا ــ تمامًـا ــ أنّ يُمنـاي تنتفـخُ أكثـرَ فأكثـر. ولا بـد أنّ روحـي كانـت حينهـا تفيـضُ وتنسـربُ بعيـدًا وكنـتُ أتوفّـرُ علـى طمأنينـةٍ لذيـذةٍ وراخيـة.

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

جلسة

«للّيل أحبّك... للصبح أحبّك...»

كنت أستمعُ إلى عبادي الجوهر، وكنتُ شبهَ مستلقٍ في أبخرةِ الصبحِ على الأريكةِ الخشبيّةِ المرتفعة، في فمي مبسمُ الأرجيلة. كانت الرطوبةُ جديرةً بهذا المقهى في قلبِ جدةَ القديمة.

/قطع/

ثـمّ إنّنـي علـى أنغـام الينبعـاوي أمسـكتُ بالعـودِ ووضعتـهُ فـي حضنـي، فـي يمينـي الريشـةُ وفـي يسـاري عنقـهُ متأكّـدًا أن لا تتحمـلَ يـدي اليسـرى أيّ ثقـل، وأنّ موضـعَ الإبهـام إلـى الجانـبِ الخلفـيِّ مـن الرقبـة مقابـلًا السَّـبَّابةَ والبنصـر... وتمايلـتُ وأنـا أعـزِف. الأضـواءُ كانت تتمايـلُ أيضًـا وكانـت سـحبُ الدخـانِ تمـلأ الغرفـة. كان علـى وجـوهِ الصُّحبـةِ طـربٌ كثيـر. ولأنّ صوتـي ليـس عظيمًـا فقـد آثـرتُ أن أقتصـر علـى العـزفِ عامـدًا إلـى جذبهـم إلـى الغنـاء بالترتيـبِ مـع ضـاربِ الإيقـاعِ الجالـسِ إلـى يسـاري.

/قطع/

بعدهـا وجـدتُ نفســي فــي أحــدِ المقاهــي، معتليًـا أريكـةً خشـبيّةً وأبخـرةُ الشـاي ترتفـعُ ثـم تنـزلُ طبقـاتٍ طبقـاتٍ علـى وجـهِ رفيقـي، لتمنحَـهُ طمأنينـةً مُتعبَـة.

مؤسسة دار الجديد

عادة

كلُّ ما فعلتُ بعد خروجي من حمّامٍ كيفما اتّفق، على عجلٍ، وأنا أمرق في طقوسِ الهندام المحيّرة والمربكة... كلُّ ما حصلَ هو أنّني التفتُّ، مادًّا يدي تلتقطُ شيئًا لا أتذكّره الآن، لكي تقعَ على تلك الزجاجةِ المخادعة. تلك الزجاجةُ التي عندما دخلَتْ غرفتي امتلكَتْها كما امتلكَتْني. وكالعادة لم يكن هنالكَ من مفرٍّ إلّا أن أضمّها بين يديّ، ولم تكن لديّ القدرةُ، بل ولا راودتني الفكرةُ كي أعيدها إلى مكانها دون أن أُنْهيَ هندامي برشاشٍ منها... أن أستنشقَ بكلّ ما امتلكتُ من أنفاسٍ، رائحتَها، التي اعتدتُها، فما عدت أدري أهي إلى الذكاوةِ أم إلى النتنِ أقرب.

هــذه الرائحــةُ البغيضــةُ التــي صــرتُ رهينهــا، التــي استحوذتْ علـى ذكرياتـي فضاءَلَـتْ كلَّ مـا قبلهـا مـن نِعَـمٍ وحنيـن.

كلُّ مـا فـي الأمـر أنّهـا امتلكتنـي بمـا منحتنـي مـن الثقـةِ يومهـا... أو ربّمـا كان كلُّ ذلـك وهمًـا، فبـأيِّ حـقٍّ يجـوز لـي أن أشـكّكَ فـي قبولهـا بـي؟ أَوَلَيْـسَ اعتـدالُ الموسـم وبـكارةُ اللقـاء كفيليـن بمنحنـا، وقتئـذٍ، كلَّ ذلك السـحر؟

هـا أنـا ذا أرفعُهـا عاليًـا لكـي أرشَّـني بآخـرِ مـا تمنحنيـه مـن وهـم. ثـم أصفـع بهـا رأسَ الحنفيّـة لأتخلّـصَ منهـا ومـن ذلـك الاسـتحضار الوَسْواسـيّ، اليائـس، الـذي لا يُحـدُّ، لذكريـاتٍ شـائخة!

هـا أنـا ذا أسـتقبلُ الطريـقَ سـابحًا فـي طيـوب رائحـةٍ لـم يتزحـزحْ ولائـي لهـا، واثقًـا منّـي كمـا هـو الأمـر دائمًـا، مسـترجعًا مناخـاتِ ذلـك اللقـاء القديـم، وكنـوزَه.

مؤسسة دار الجديد

طيف

لـم يَكُـنْ مـن الصباحـاتِ التـي تُعـرَفُ نكهتُهـا بسـرعة. لـم يَكُـنْ بمقـدوري أن أتثبّـتَ مـن ذاك الـذي يُـلَـطِّـفُ مـن أشـعّةِ الشّـمسِ هـذا الصبـاح: أهـو ضبـابٌ خفيـفٌ أم طلائـعُ يـومٍ غبـاريٍّ آخـر. بقايـا النـوم كانـت تعمّـرُ رأسـي وأنـا أَنتهـجُ الطريـقَ الزراعـيّ خلـفَ بلـدة العوّاميّـة متحاشـيًا الازدحـامَ الكئيـب فـي غُـدُوِّ البشـر إلـى أعمالهـم.

لا أدري يـا محمـد، أهـو أمـرٌ علـى درجـة مـن القسـوة، أم أنّنـي أنـكأُ ذاكرتَـكَ المجروحَـةَ بخاطـرٍ سـخيف... إلّا أنّنـي رأيتـه تمامًـا، بعينـيَّ هاتيـن، كمـا هـو فـي هـذه الصـورةِ الباهتـة التـي تسـكن جـدار الصالـة فوقنـا، يركّـزُ النظـر فينـا بعينيـن فيهمـا الأبـوّةُ القديمـة.

مؤسسة دار الجديد

رأيتـه، وكانـت بيننـا قنـاةُ الميـاه، يقـودُ سـيّارتَهُ العتيقـة، التـي حدّثتنـي عنهـا كثيـرًا فـي اتّجـاه البلـد، كان يعتمـرُ العقـالَ الثخيـنَ كمـا هو فـي هذه الصـورة، وكان شـارباهُ مهذّبيـن كأنّهمـا خـطٌّ مرسـومٌ بدقّـة فـوق شـفته. أزعُـمُ أنّـي تبيّنـتُ حتّـى اللـون الرمـاديّ الـذي آلَ إليـه اسـوادُ عينيـهِ عندمـا التقيتـه تلـكَ المـرةَ الوحيـدة... كنـتُ صباحَهـا أسـتعجِلُكَ الخـروجَ إذ رأيتـه مـن فُتْحـةِ البـابِ المواربـة، جالسًـا القُرفصـاءَ بجسـمه الناحـلِ المسـتدقّ، فـي يـدهِ مبصقتُـه، كان فـي انبهـاري بسـنواتهِ التـي أغنتْـهُ عـن الحاجـة إلـى النـومِ مـا فـاقَ رهبتـي عندمـا أحسسـتُ وأنـا أُصبّـح بـه أنّ جـدرانَ غرفتـهِ الصغيـرةِ تمتـدُّ بـلا نهايـةٍ خلفَـهُ.

لـن أنسـى مـا حييـتُ، يـا محمـدُ، تلـك النظـرةَ اللمّاحـةَ مـن عينيـنِ غائرتيـن، لـن أنسـى ذلـك الصفـاءَ الـذي منحتنـي إيّـاه التفاتتُـهُ وابتسـامتُه وهـو يـردُّ التحيـة... متعطّفًـا، مسـلّمًا، مُـدركًا كـم افترقـت حياتـه عـن حياتكـم.

أهـو الخيـالُ أيضًـا أم بقايـا النـومِ الـذي صـوّرَ لـي المصابيـحَ المسـتديرةَ للسـيارة ورفارفهـا المنتفخـة؟ لـم يكـن الأمـرُ هكـذا وحسـب. فقـد رأيتكـم كلَّكـم معـه. أخـوك الأكبـرُ كان جالسًـا بثوبـهِ هـذا وبالصديـري المخطّـطِ نفسِـه. وأنـت مـن المقعـدِ الخلفـيّ، علـى وجهـك نصـفُ بـكاءٍ لأربعيـنَ عامًـا خلـت، ترمـي بيديـكَ الحائرتيـن إلـى مـا بينهمـا. تنظـر إلـى البعيـد... دون أن ترانـي. مـا كنـتُ قـادرًا علـى الـدوران، لكنّـي مـن خـلالِ المـرآةِ كنـتُ أرى السـيارة وهـي تمضـي وتتلاشـى فـي الغِشـاوةِ التـي تلـفُّ الطريـق.

مطر

مـا إن لامَسَـتْ زخّـاتُ المطـرِ المنهمـرِ هامتـي، حتّـى توقّفـتُ عنـد الدهليـزِ المُعتـم، وأدرتُ جذعـي نصـفَ دورة مـادًّا يـدي تنقُـرُ النافـذةَ ثـلاثَ مـرّات، بـل أكثـر، وصحـتُ بصـوتٍ لا بـد أنّ بهجتـه كانـت واضحـةً: إنّـه المطـرُ أيهـا الأشـقياء...! حينهـا تجسّـدَ أمامـي وجـهُ أكثرهـم حكمـةً بابتسـامته المشـوبةِ بدهشـةٍ واثقـةٍ وهـو يجاوبنـي: لكنّنـا لـم نشـمَّ رائحـةَ المطـر بعـد!

أخـذتُ نفَسًـا عميقًـا اختلطـت فيـه رائحـةُ المطـرِ بالغبـار، متفكّـرًا فـي هـذا الصاحـبِ الـذي يريـد أن ينافـس الـكلاب شـمًّا.

مؤسسة دار الجديد

قطعتُ الباحةَ المفتوحةَ بشجيراتها الصغيرةِ المغروسةِ في أصَصٍ فَخَّاريّة وصولًا إلى البابِ المؤدّي إلى الطريق. وعلى الدكّةِ وقفتُ أمسح النّداوةَ عن عُويناتي محتميًا بالمظلّة الإسمنتيّة.

عندما أعدتُ النظّارةَ إلى مكانِها، تسنّى لي أن ألاحظَ الشارعَ الإسفلتي وهو يُكمِل حِليتَهُ النديّة، حتّى إذا ما تداخلت بُقَعُ الرطوبةِ، صارتِ الظلالُ المنعكِسةُ للأشياءِ والسياراتِ والأطفالِ الخارجين من الدّكّانِ المقابلِ تتراقصُ على نحوٍ أكثرَ وضوحًا، وقوّة.

فـي الغالـبِ كان لمشـواري أن يكـونَ كغيـرِه... عُقـارًا ضـدَّ الوَحْـدةِ، ضـدَّ الأرق... مـا كان لـي أن أسـتقرَّ إلا حيـن أُنهَـك فـي ليلـةٍ ابتـدأت كغيرهـا مـن الليالـي البهيمـة... المطـرُ وحـدَهُ جـاءَ ليداهـمَ مخابـئَ الذكرى... وهـا هـي الرائحـةُ ذاتُهـا والصـورُ التـي اكتملـت مـن ذي قبـل تسـتثير شـقاءَ الحنيـنِ إلـى مـا لا يُسـتعاد، أبـدًا.

مـن البـابِ ذاتـهِ اختلسـتُ نظـرةً أخـرى إلـى النافـذة التـي تتوسّـط البنـاء، كانـت ظـلال الشـموع تتهـادى ثـم تـذوبُ فـي الظلمـة... هـؤلاء الذيـن يـداوونَ المعيشـةَ بالـكلامِ ويتوقّعـونَ أنّ للمطـرِ رائحـةً تسـبِقُهُ... ليـس لـي، هـذه الليلـةَ، غيرهُـم.

مؤسسة دار الجديد

الإهْداء
٧

إختبار الحاسة
إختبار الحاسة (١١)، شادية (١٥)، أي رمية حجر (١٩)،
طيران (٢٣)

فيزياء
عزف منفرد (٢٩)، طقس (٣١)، صورة (٣٥)، جاذبية
(٣٧)، أرق (٣٩)، Entropy (٤١)

منتهى القول
في المعنى (٤٥)، فقه المكان (٤٧)، سدرة المنتهى
(٥١)، لا نهايات (٥٣)

كلام قليل
٥٧

مؤسسة دار الجديد

إلى الذي بيني وبينه
هذا الغياب
إلى الذي بيني وبينه هذا الغياب (٧٥)، إلى الذي بيني وبينه
هذا الستار (٧٧)، إلى الذي بيني وبينه هذا المدى (٧٩)

معايشة
٨١

القاهرة
٩١

شقيقة الروح، شادية
١٠٣

تشبّب
متن (١١٩)، هامش (١٢١)

حكي
مصافحة (١٣٧)، جلسة (١٤١)، عادة (١٤٥)، طيف
(١٤٩)، مطر (١٥٣)

مؤسسة دار الجديد

مؤسسة دار الجديد

”الجسـدُ صبيٌّ والروحُ صـبـيـةٌ... الجسـدُ رجـلٌ والـروحُ امـرأةٌ... يبـدآن توأميـنِ ويكْبُـرانِ طفليـنِ يأخُذانِ في التشكّلِ رجلًا وامرأةً كلًّا على حِدَة. لكنّهمـا لا ينفصِمان.“

غسّان الخنيزي

شاعرٌ ومترجمٌ من المملكة العربيّة السعوديّة

لـــه في الشعـــر

أوهام صغيـرة، طبعتـان، ١٩٩٥ و٢٠١٨، دار الجـديـد

لـــه في الترجمة

صورةٌ ذاتيّة في مرآةٍ محدّبةٍ، **جون آشبري**، دار روايات

إنقاذُ القطّة، **بليـك سنايـدر**، فنّ كتابة السيناريو السينمـائيّ، إصدار مهرجان أفلام السعودية وجمعيـّة الثقافة والفنـون بالدمّام ٢٠١٩

9 789953 111988

مؤسّسة دار الجديد